حسين الورتيلاني والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"

عبد القادر بكاري

جامعة ابن خلدون- تيارت، bekk1960@yahoo.fr

الملخص:

شكلت الرحلة عاملا هاما عبر مراحل التاريخ في حياة الشعوب عامة وفي حياة العرب والمسلمين خاصة، وازدادت هذه الأهمية قوة خلال أزهى عقود الإسلام حيث كانت الأغراض من الرحلة مختلفة، فمنهم من كان يتجول عبر المدائن والبلدان في رحلات طويلة وشاقة أغلب الأحيان قاصدا التجارة وجلب السلع، ومنهم من قضى أياما طويلة لزيارة الأماكن المقدسة في أرض الحجاز قصد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام(الحج)، ومنهم من كان يقطع المسافات ويتحمل الصعاب لزيارة حواضر العلم للجلوس إلى العلماء والتروي بسائر العلوم.

لقد كان العالم المغاربي عامة والجزائري خاصة يحس بأن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافيا لإرضاء كل رغباته العلمية، ولذلك كان عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر، عالم المشرق الذي كان مصدر إلهامه، والذي كان يتصدره قطب البيت الحرام(مكة). وعليه، فكثير من العلماء الجزائريين ممن كانوا يرون أن شخصياتهم تكتمل عندما يذكرون أن لهم رحلة إلى المشرق، مُنوهين بذكر أسماءهم، ومسجلين إجازتهم، وذاكرين مصنفاتهم التي أطلعوا عليها، وأهم المشاهد المقدسة.

من بين أهم الرحلات الحجازية التي اشتهرت بالمغرب الأوسط(الجزائر) في العصر الحديث، رحلة حسين الورتيلاني. ولعل من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذه الشخصية، أن رحلته متوفرة كاملة، ومتميزة الاهتمامات بالمسائل العلمية، إضافة إلى الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أن حسين الورتيلاني رحالة ومؤرخ، ولد ونشأ بالجزائر(بقبيلة بني ورتيلان بمنطقة زواوة)، رحل إلى المشرق، حج عدة مرات، وأخذ عن علماء مصر والحجاز والشام، ثم رجع إلى وطنه، قال عنه صاحب كتاب: "شجرة النور الزكية"العلامة المحقق المؤلف

المدقق...أخذ عن والده وشيوخ وطنه...حج ثلاث مرات، واجتمع بأعلام، أفاد واستفاد...له تآليف منها رحلة سماها" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

الكلمات المفتاحية: الرحلات الحجازية؛ حواضر العلم؛ حسين الورتيلاني؛ الإجازات العلمية؛ بني ورتيلان.

Abstract:

The journey constituted an important factor through the stages of history in the lives of people in general, and in the lives of Arabs and Muslims in particular. This importance increased considerably during the brighter decades of Islam, where the purposes of the trip were various, some of them were wandering through the cities and countries in long and arduous trips often intending to trade and bring goods and some of them spent long days to visit the holy places in the land of Hejaz, in order to perform the fifth pillar of Islam which is pilgrimage, and some of them were covering long distances and endure hardships to visit the capitals of science and meet scientists so as to be able to profit from other sciences.

Among the most famous Hejazi trips in middle Maghreb (Algeria) in the modern era, the one madeby al-wertilani and perhaps the reasons that led me to choose this character is that his trip is wholly available, characterized by scientific matters, in addition to political, economic and social news.

Al-wertilani was a traveler and a historian. He was born and brought up in Algeria(tribe of beni-wertilen).he went to the orient, and looked for Egypt, the Hejaz and the Levant scientists, then he returned to his homeland, the author of the light tree pure said about him that he was brand investigator, author checker…He learnt from his father and the elders of his homeland, pilgrimage three times, and met many scientists.. He has many writings, among which the so-called: trip sight of the virtue of knowledge of history and news.

Keywords: trips-land of Hejaz; capitals of sciences; Hussein wertilani; scientific holidays; beni-wertilan.

مقدمة:

لقد عرف العرب والمسلمين أدب الرحلة منذ الأزل، وكان للعلماء العرب والمسلمين السّبق في هذا المضمار كما وكيفا، وكانت عنايتهم به عظيمة في سائر العصور، فكتبوا رحلاتهم مبسوطة ومختصرة، منثورة ومنظومة، خاصة فيما يتعلق بالرّحلات الحجازية التي سموها تارة فهرسة، وتارة برنامجا، وتارة اختاروا لها عنوانا.

وإذا كانت الرحلة ميدان واسع يتسابق فيه المؤرخ والأديب والجغرافي وعلماء آخرين، فإنها في بعض أشكالها فن أدبي خالص، أو أقرب إلى الفن الأدبي، وعلى هذا النمط سارت رحلات العلماء الجزائريين في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وأضحت فنا مختلطا جمع شتاته صاحب الرحلة نفسه الذي صور كل ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلاته التي قام بها إلى بلدان المشرق العربي خاصة.

ومن دون أدنى شك، فإن الرحلات الجزائرية الحجازية شاعت وتأصلت في المغرب الأوسط في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين/السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وأصبحت فنا قائما بذاته من حيث تدوينه بأسلوب مميز في سفر يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة، مع إعطاء لمحة وافية عن كل مراحل السفر، وبالتالي عدّت هذه الرحلات من أصدق المصادر التاريخية، وأكثرها عناية بما يتعلق بالمشرق العربي وخاصة الحجاز، مما تفتقر إليه العديد من المصادر الأخرى في فنون أخرى.

وفي هذا الإطار تأتي رحلة حسين الورتيلاني الموسومة بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" من أهم الرحلات الحجازية الجزائرية في تلك الفترة، لأنها رحلة تعتني بالسّرد التاريخي والوصف الجغرافي والفن الأدبي، وهي رحلة متوفرة كاملة، وشاملة لثلاث رحلات(حج الورتيلاني ثلاث مرات) في فترات متلاحقة خلال القرن الثاني عشر الهجري. ولهذا جاءت هذه المقالة لتتمحور حول النقاط التالية، منها: ما هي محتويات رحلة الورتيلاني وما هي موضوعاتها؟ وما هو منهج الكتابة التاريخية عند الورتيلاني وأبرز مميزاته؟ وما هي المصادر المكتوبة التي اعتمد عليها في رحلته؟ وما هي القيمة العلمية والأدبية لرحلة الورتيلاني؟ تلك هي جملة من التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها معتمدين في ذلك أساسا على كتاب الرحلة الورتيلانية وأهم المصادر الوارد ذكرها في هذا الكتاب.

التعريف بالحسين الورتيلاني:

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن يحي بن أحمد الشريف بن علي البكاي البجائي الحسني من شرفاء تافيلالت

الورتيلاني(نسبة لبني ورتيلان)، وهي قبيلة أمازيغية بمنطقة بجاية ببلاد زواوة في المغرب الأوسط(الورتيلاني حسين، 1974: 05).

ولدعام1125هـ/1713مـ، ونشأ في وسط أسرة فقيرة دعامتها التقشف الصوفي، وأساسها الصلاح والشرف العلمي، فأبوهُ وجَدهُ كانا عالِمين كبيرين في المنطقة التي يدعوها بعرشنا"بنيورتيلان". تردد حسين الورتيلاني كغيره من أطفال القرية على المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها والده، وعلى الزوايا أين تضلع في الفقه وعلم التوحيد، إلى جانب اهتمامه بالتصوف الروحي، والتبحر في اللغة العربية وآدابها والنحو، ودراسة التاريخ، كما أخذ عن علماء وفقهاء منطقة زواوة، وعنهم يقول: "هؤلاء فقهاء مدرّسون متّبعون للسّنة، وقد ظهرت عليهم آثار الفضل، وأنوار الحق مشرقة عليهم، وقد صحِبتُهم وأحببْتُهم، وشهِدتُ من جميعهم ما يدلّ على ذلك"(الورتيلاني حسين، 2011: 32).

رحل الورتيلاني إلى المشرق العربي مرات، فالتقى بعلماء أجلاء وفقهاء أكفاء، استفاد من علمهم ونهل من دروسهم، فأجازوه في جميع العلوم ومنهم الشيخ ابن الصباغ، والشيخ أحمد السكندري المالكي، والشيخ الصعيدي العدوي، والشيخ الطحلاوي، والشيخ علي العمروسي، والشيخ احمد النفراوي، والشيخ أحمد الجوهري الشافعي، والشيخ العفيفي، والشيخ محمد التونسي الشهير بالبليدي.

وفاته:

توفي حسين الورتيلاني عام1193هـ/1779مـ بمسقط رأسه في قرية بني ورتيلان، ودفن في مقبرتها قرب زاويته ولا يزال قبره قائما إلى يومنا هذا(الورتيلاني حسين، 2011: 45) ونفس التاريخ يؤكده عبد الهادي التازي(التازي عبد الهادي، 2005: 375).

مؤلفاته:

اهتم الورتيلاني بجمع العلوم الفقهية وأصول الذّكر على الطريقة الصوفية الشاذلية، كما انشغل بالتفسير وكتابة القصائد، فخلّف آثارا عديدة أغلبها شروح، وإن كان معظمها في عداد المفقود، من أهمها وأشهرها وأكبرها، رحلته المعروفة بالرحلة الورتيلانية، والموسومة بـ:

"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وهي الرحلة التي تمت سنة1179هـ/1766مـ، فقد خرجت إلى الطبع مع تعليقات بن مهنا القسنطيني سنة1321هـ/1903مـ بحاضرة تونس، ثم نَشرها وحَققها لأول مرة محمد العربي بن أبي شنب سنة1229هـ/1908مـ بمطبعة بيير فونتانا الشرقية بالجزائر، وأعادت مطبعة دار الكتاب العربي ببيروت طبعها للمرة الثانية سنة1394هـ/1974مـ، وهي عبارة عن موسوعة وصف فيها الدول والمدن، والمناطق وأهلها، وعلمائها وعاداتها التي مر بها في رحلاته، كما ترك مؤلفات أخرى منها:

شرح المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف، وهي منظومة في آداب السلوك في طريق السنة، نظمها عام944هـ/1538مـ، تأثر بها الورتيلاني واستشهد بها في العديد من المواضع في مؤلفه، شَرحَها الورتيلاني في كتاب يسمى"الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية". وهو مخطوط بمكتبة تطوان بالمغرب الأقصى تحت رقم115.

كتاب شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار، موضوعه الأوراد والأذكار، موجود بالمكتبة العامة والمحفوظات بتطوان المغربية تحت رقم155(الدليرو المهدي، 15:1981).

شرح محصل المقاصد، للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، ويبدوا أنه لبعض الأبيات العرفانية، موضوعه الأخلاق والتصوف، مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، رقم475/3(القادري محمد، 1985: 548).

شرح كتاب الصلاة

كتاب الرحلة السّنية

حاشية على كتاب المرادي

شرح بردة البوصيري

شرح خطبة الصغرى للسنوسي

حاشية على حاشية الكتاني على شرح السنوسي

حاشية على حاشية المحقق السكتاني على أم البراهين

رسالة في قول بعض الأولياء" نسجت برنسا من ماء، وأخرى" وقفت(خضت بحرا وقفت الأنبياء بساحله) على ساحل وقفت الأنبياء دونه".

و"رسالة في حل اللغز" الذي أرسله احمد بن يوسف الملياني إلى علماء فاس فعجزوا عنه.

قصيدة ميمية في نحو 500 بيت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم كالهمزية.

قصائد أخرى في الرِّثاء لبعض الرجّال من المتصوفة، منها قصيدة مشهورة رثا فيها أحمد زروق البرنوسي

التعريف بكتاب الرحلة وبموضوعاته:

لقد اختار حسين الورتيلاني لرحلته عنوانا دالا لغة واصطلاحا، جذَّابا يوحي بمضمونها، وهو"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وهي نتاج لرحلاته الحجازية التي قام بها الورتيلاني، والملفت للنظر، أن بين كل رحلة وأخرى مدة ثلاثة عشرة سنة، مكنت الورتيلاني من ترتيب حلقات مؤلفه، وهو ما يذكره أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي".(سعد الله أبو القاسم، 1981: 409).

للعلم، أن كل من ترجم للورتيلاني يثبت نسبة الكتاب له، وسأكتفي بواحد ممن عاشوا في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، عاصره ولازمه ودَرس عليه الورتيلاني كثيراً، إنه محمد ابن ميمون الذي يعتبر في نظرنا من الشخصيات الجزائرية التي تستوجب الوثوق بها فيما يرويه للتاريخ، وعن ذلك يقول: "من مؤلفات حسين الورتيلاني- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار- ، وقد اشتهر هذا التأليف باسم الرحلة الورتيلانية"(ابن ميمون محمد، 1972: 78).

من الأمور التي يجب التنويه بها في هذا الشأن، هي الوعي التام والإدراك الكامل للورتيلاني بالنقص الكبير في التأليف في الجزائر بصفة عامة، وانعدام الاهتمام بالتاريخ بهذه الديار بصفة خاصة، فأراد ملء هذا الفراغ بتأليف في علم التاريخ، وعن ذلك يقول: "فإن علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم،

فيحسبونه كالاستهزاء، أو انشغالا بما لا يعني، أو من المضحكة المنهي عنها"(الورتيلاني حسين، 1908: 713).

إن كتاب"نزهة الأنظار" أراده الورتيلاني كتاباً تاريخيا للرحلة وأدبها في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فهو مزين بأخبار مفصلة عن الخلافة الإسلامية، وعن فتح البلدان، كما يجمع تراجم عن علماء وأولياء ومشايخ المغرب والمشرق العربيين، وهو مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامي في الفترة المذكورة سابقاً، بما يمكن أن يكون موسوعة تاريخية تضاف إلى مؤلفات الرحالة المغاربة، فهي حصن الحصين ودرع متين وقد كان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان1182هـ/1769مـ(التازي عبد الهادي، 2005: 375).

لقد ضبط الورتيلاني في مقدمة كتابه وبكل دقة ووضوح دوافع تأليفه، الناتج عن شغفه الكبير بما رأى وشاهد أثناء رحلاته، ويظهر جليا من خلال كتاباته، درجة السعادة العالية والحب الصادق لمن لاقاهم، أو سمع عنهم من العلماء والصلحاء خلال زياراته إلى بلدان المغرب والمشرق العربيين، وعن ذلك يقول: "وبعد: فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرِّباع والقفار والديار، والمواطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى، والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدِّثين والمفسّرين الأخيار، والأشياخ العارفين، والإخوان والمحبين المحبوبين من المجاذيب المقرّبين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصَّحو والمحو، إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة، والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف ممَّا فتح به عليّ، أو منقولا من الكتب المعتبرة..."(الورتيلاني حسين، 1974: 03).

إن المتصفح لمؤلف الورتيلاني يقف على محتويات الكتاب بالتفاصيل، ولعل ما يذكره تحت عنوان"تتمة" يوضح مقصده، فيقول: "إنما نذكر من ذكر الإخوان والمحبين، وبيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم...وأما ذكر أوصاف الطريق وبيان المواضع، فإن فيه اعتبارا ودلالة على آثار قدرة الله تعالى، وتسخير

الأكوان لنا..وزيارة الأخوان والقيام بحقوقهم..وشرف العلم بشرف معلومه، ولم يكن شيء أعز من بيت الله تعالى، ولا أعظم من الطريق الموصلة إلى رب البيت، وأما ذكر المدن والقرى وبيان أوصافها، فهي أمور خاصة بمؤلف الرحلة..لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الزاد، ويلاقي الرفاق، ويصحب الرفقة، وينزل على الماء، ويتزود منه".(الورتيلاني حسين، 1974: 290- 293).

من المواضيع البارزة في الرحلة الورتيلانية هو الوصف الجغرافي والسرد التاريخي الخاصين بالبلاد العربية التي مرت بها الرحلة، فقد امتاز الوصف الجغرافي عند الورتيلاني بالتأكيد على الجانبين البشري والطبيعي، وهذا ما وفر للرحلة جانبا علميا مهما، لأن الظروف الجغرافية البشرية متغيرة، في حين أن الجوانب الطبيعية ثابتة، وقد فرضت هذه التغيرات أن يكون للزمن دوره في إعطاء الأوصاف مكانتها.

لقد حرص الورتيلاني على وصف كل المناطق التي شاهدها وزارها بملاحظات دقيقة، غير أن زيارته لمصر وإقامته بها(يبدو أنه مكث مدة بمصر ليست بالقصيرة) تحمل بالنظر للأبواب التي خصها بالذكر في الرحلة انطباعا متفرداً ومتميزاً كله كثير الإعجاب، فقد وصف عادات وتقاليد أهلها، أسواق وأزقة مدنها، وذكر مساجدها ومناراتها كمنارة الإسكندرية، ومقاماتها كمقامة السيدة نفيسة،

أما جامع الأزهر فكان من الأماكن التي شوقته بغية لقاء علمائه، ولا أدل على ذلك من قوله: "وبالجملة فمصر أم البلاد شرقاً وغرباً، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خيرٍ أو شرٍّ..فهي تغني عن الغير، ولا يستغني الغير عنها".(الورتيلاني حسين، 1974: 24 وما بعدها).

أما الموضوع الثاني في الرحلة، فهي سرد قائمة طويلة من التراجم للأولياء والعلماء والفقهاء الأحياء منهم والأموات، سواء بوطنه أو بالمناطق والمدن التي زارها خلال رحلته، فقد حصر اهتمامه أكثر على التراجم، وذكر الأحوال والأخبار على مدى فترات، بحيث لم يقتصر على فترة معينة، أو طائفة من الناس، كما لم يختص بمذهب من المذاهب، أو فن من الفنون، وعن دواعي تراجمه لصلحاء وطنه مثلا يقول: "غير أنّ صلحاء بلدنا لم يتعرّض لهم أحدٌ قبلُ ولا بعدُ، لعدم الاعتناء

وضيق المعيشة، أردت التّنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار، مع البيان والاستفسار.نعم أذكر مادون "وادي آقبو"، وأما"جبل زواوة" فهو منفرد، وأولياؤه شُهرتُهم تُغني عن ذكرهم، وتعظيمهم يقوم مقام بيانهم وتبيانهم وجميل آثارهم"، وكأني به وهو في هذه الحال، كحال الأدفوي الذي عرّف برجال مدينته ومكان نشأته ليتباهى بهم أمام رجالات باقي المدن الأخرى في كتابه، حيث قال: "ولما كان صعيد قوص الموضع الذي منه نشأتي، والمكان الذي إليه نسبتي، فأحببت أن أحيي ما مات من علم علمائها، وأنشر ما انطوى من فضل فضلائها...فالإنسان يكرم بكرامة أهله، كما يعظم بنبله وفضله(الأدفوي كمال الدين، 1914: 4- 5).

أما عن أولياء مصر، فيقول: "مصر قد حُشِيتْ بأولياء اللّه، وإنّهم فيها كالنجوم في السّماء، فالمستور فيها أكثر من الظّاهر، إذ الخامل فيها أكثر من أن يحصى(الورتيلاني حسين، 1974: 98)

ولما كانت عزيمة الورتيلاني على تدوين رحلة هامة، يفتخر بها، ويصحح بها أيضا موقف أهل بلاده، فقد زيّن مؤلفه بأخبار مفصلة عن الخلافة الإسلامية وعن الفتح الإسلامي لبعض البلدان، مع مقارنة نصوصه ببعض ما أوردته المصادر التاريخية السابقة والمعاصرة لرحلته.

ومن هذا الجانب اعتبرنا أن رحلة الورتيلاني رحلة تاريخية، فهو يتطرق إلى الفتح الإسلامي لإفريقية منذ عهد عقبة بن نافع الذي ولاه معاوية بن أبي سفيان، ذاكراً معلومات ذات قدر كبير من الأهمية، خاصة ما تعلق بالنواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية للمنطقة(الورتيلاني حسين، 1974: 213 وما بعدها).

منهج الكتابة التاريخية عند الورتيلاني وأبرز مميزاتها:

تعتبر الرحلة الورتيلانية من بين أبرز الرحلات التي شهدتها الجزائر في الفترة العثمانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، فهي عبارة عن سجل لما عاشه وشاهده في طريقه، سواء تعلق الأمر بركب الحج، أو بالحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي مر بها منذ اعتزامه على الرحلة، إلى غاية بداية تدوين ما

جمعه في النهاية إلى عمل تاريخي سنة1182هـ/1769مـ. فهذه الرحلة شبيهة برحلات العياشي والناصري، فقد ظل مشدوداً إلى كتاباتهم، وفاسحا المجال واسعا لما سبق ذكره من هؤلاء، فاشتملت على معلومات تتعلق بالمسالك والممالك، وذكر العلماء سواء الذين إلتقاهم وأخذ عنهم، أوالذين سمع عنهم، اشتهروا في مستهل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي(بروفنسال ليفي، 1977: 206).

ولذلك، فإن أول ميزة في منهج الكتابة عند الورتيلاني، هي كشفه لنا عن نوعية وقيمة رحلته بوصفها مصدراً مهما من مصادر تاريخ التاريخ الجزائري، فقد اظهر ميولاته القوية نحو علم التاريخ، وأكّد على مكانته بين العلوم الأخرى، وأهميته في فهم الحياة، واستيعاب العبر من التجارب، وانه العلم الذي يزيد من قيمة الإنسان وفضله، وان منزلة العالم، إنما تقاس بمدى إلمامه بالتاريخ وأخبار الأمم والحضارات، بل وأكثر من ذلك، إذ هو الطريق وبيانها كبيان الطريق الموصلة إلى الله تعالى، لأن الرحلة توصل إلى بيته، بل توصل إلى رضاه، وأي علم أشرف من هذا العلم وفائدته ظاهرة، هذا وإن علم أمور الرحلة وبعض علم التاريخ يرجع إلى علم السيرة النبوية، فهي تجمع عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، بطرق علمية وثبوت قوي، لا يترك مجالاً للشك في وقائعها وأحداثها الكبرى، خاصة وأنها أصح سيرة لتاريخ الرسل والأنبياء(السباعي مصطفى، 1985: 16).

كذلك من بين الميزات التي لمسناها في رحلة الورتيلاني، هي طريقة التدوين التي لا تختلف كثيراً عن طريقة تدوين كتب التراجم والمناقب وغيرها، فإذا كانت الرحلات العامة لا تشتمل إلا على ذكر ما يُشاهد وما يُسمع أيام السفر، فإن الرحلات الحجازية تتضمن عادة بجانب الوصف، تراجم العلماء والفقهاء الذين صادفهم أصحاب تلك الرحلات أثناء حلهم وترحالهم، فهي من هذه الوجهة أشبه بقواميس تبوغرافية، ويكفي شهيدا على ذلك ما وصلت إليه رحلة العياشي من شهرة في الأوساط المغربية، ورحلة الورتيلاني في الأوساط الجزائرية، نظرا لاشتمالهما على تراجم عدد لا يستهان به من علماء المشرق خاصة(الكتاني محمد، 2004: 03)

إن رحلة الورتيلاني نسجت على منوال السلف من حيث المعنى لا المبنى، لأن كل الرحالة المغاربة متشابهون على وجه التقريب في مشاربهم الثقافية، فهو يستعمل الأسلوب القرآني في العديد من العبارات، داعيا إلى التحلي بالصفات الحميدة، لأن فيها الاعتبار والدلالة على قدرة الله تعالى، من ذلك مثلا دعوته للصبر عند البلاء، مذكراً بصبر أولوا العزم من الرسّل ليسهُل حمل أعباء المصائب، ويستشهد بالأحاديث النبوية في الكثير من المناسبات، رغبة أن يعمل بها من وقف عليها، ويوظف الشعر كوسيلة في الدلالة على الحقائق التاريخية والأدبية سواء من نسج غيره أو من وحيه، ومن ذلك مثلا، الموقف الذي يتخذه من دُعاة النسب، بقوله" والناس في أنسابهم مصدّقون...إذ الأنساب كالحيازة في الأموال"، فيقول:(الورتيلاني حسين، 1974: 128).

سَرِيـرَةَ الجدِّ تحِقُ فِـي الوَلَـدِ وَنُـورهُ حَقًّـا عَلَيْـه يُعْتَمَـدُ
فَخَيرَةُ الخلْـقِ مِنْ أَصْلٍ طَيِّبٍ شَذَا مُعَطِّرٍ أنّي مَنْ أَعْجَبِ
وَحُسْنُ أَخْلاَقٍ كَذَا قَدْ يُنْتَخَبُ وَأَمْرُهُ غَرِيبٌ لَيْسَ يُحْتَجَبُ

إن أسلوب الورتيلاني واضح وبعيد عن التكلف، متضمنا لمفردات وعبارات متداولة عند الجميع، وإن كان لا يخلو من الطلاوة والتنميق عند تحلية أفاضل الأعلام الذين ترجم لهم، كما أنه يضحي بكل قوالب الأدب بعض المرات عندما يعتني بتوضيح الوقائع التاريخية. حاصله أن الرحلة الورتيلانية ليست نصا تاريخيا فحسب، ولا هي نص أدبي فقط، بل هي كذلك متن يحتجز أفكار الشيخ الإصلاحية، ومواقفه الصريحة في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والفقهية.

يرسم الورتيلاني مسار لرحلته، وهي في حقيقتها خريطة جغرافية، تُكتشفُ من خلال يوميات خط الرحلة، هذا الخط المصحوب بالتواريخ التفصيلية، بحيث أنه يربط بين التواريخ والأماكن ربطاً محكما، وذلك بتحديد الزمن والمسافة المقطوعة بين منطقتين، وهو الأمر الذي يُمكِن من معرفة المناطق والمدن التي أطال فيها أو العكس، كما أنه يزاوج بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي، وهي إشارات ثابتة بالأيام والشهور والسنة لبداية تاريخ الرحلة، والمدة التي استغرقتها ذهاباً وإياباً، ومدة مناسك الحج.

مع العلم، أن مدة الإقامة بين المراكز تباينت لعدة أسباب، منها: الحاجة إلى الراحة والتزود بالماء، وأهمية المركز من الناحية الاقتصادية لقضاء الحاجيات من بيع وشراء، ومراعاة الظروف الأمنية(اللصوص وقطاع الطرق) والظروف الطبيعية، بالإضافة إلى الناحية العلمية التي شغلت الورتيلاني، فجاور مصر وعلماء الأزهر مدة تفوق الشهر.

وهنا أود الإشارة إلى ملاحظة، وهي أن الرحلات الحجازية المغاربية (الفاسية، الجزائرية، التونسية، الليبية) كانت تسير وفق خط سير موحد ومشترك، بدليل أن كل الركاب الحجاج كانوا يلتقون في مراكز معينة، مع تأخير أو تقديم للبعض تارة، وهذا ما يذكره الورتيلاني في رحلته بقوله: "وبعد ذلك نزلنا "الزّعفران"(هي مركز بمدينة برقة الليبية)، وفي ذلك الموضع تلاقينا مع الرّكب الفاسي والفيلالي مغرِّبين، ووقفنا مع أميرهما ساعة زمانيّة استخباراً عن مصر وأرض الحجاز"(الورتيلاني حسين، 1974: 412).

صحيح أن الورتيلاني متمسك بالعقيدة الإسلامية كدين، ويؤمن بالعالم الإسلامي كفضاء لجميع المسلمين، ولكن غريزة حب الوطن في نفسه تحركت، فتحدث عن الوطن، يقول الجرجاني في التعريفات" الوطن هو مولد ونشأة الرجل، والبلد الذي هو فيه"، ووطن الورتيلاني مدينة بجاية مسقط رأسه، وعنه يقول: "فوطننا طيّب فيه العلم وبعض الكرم للغريب، وفيه الزّيتون والعنب والتّين بكثرة، والحرث، غير أنّ الوطن عزيزُ غالٍ، وسبب ذلك كثرة النّاس، غير أنّه خال من السّلطان وأحكامه، فالوطن سائبُ- عمّره الله بالأحكام الشرعية- ، وأزال منه الفتنة، وبدّل ذلك بالعافية الدّائمة، وكذلك الغالب عليها البردُ والثّلج، وبالجملة نسأل الله تعالى أن يعمره على يد سلطان عدل"(الورتيلاني حسين، 1974: 87).

مصادره:

لقد اعتمد الورتيلاني في تدوين رحلته على نوعين من المصادر، وهي: المصادر الشفوية مما شاهده وسمعه، والتي سجل فيها كل ما رآه ومما سمعه خلال رحلاته من علماء أفاضل، ومشايخ أجلاء، وفي المدن والأمصار، وعن الشعوب بعاداتهم وتقاليدهم، وعن هذه المصادر يذكر مثلا ما شاهده وما سمعه

بمنطقة"التميمي" بليبيا، فيقول: " وقد **شاهدنا** الجميع مراراً، والشكر لمن له المنّة والفضل، فلا تحسب الوفد خاليا فتكون فارغاً"، ويقول في موضع آخر"فكان الرجل يبيع أولاده، وكذا المرأة تبيع أولادها إن كانت أيّماً، وقد **شاهدنا** ذلك فنهينا الجميع عمّا هنالك"، أما عن ما سمعه من شيوخه تارة، وعن الناس تارة أخرى، فالأمثلة كثيرة وكثيرة، ولعل ما يذكره في بعض المواضع لدليل على ذلك، قوله: "وقد **سمعت** من العارف بالله الصّدر الأعظم، والعالم الأفخم، والورع الفهم، الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي محمد المغربي الطرابلسي عام أربعة وخمسين ومائة وألف"في حين أنه يعتمد على بعض المصادر بالمخاطبة مباشرة، قوله: "وقد **أخبرني** شيخنا سيدي أبو مهدي عيسى الثعالبي أيّام كنت أتردّد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي"، وقوله في موضع آخر: **"وأخبرنا** شيخنا أبو مهدي، أنه خرج ذات مرّة للتحنث بهذا الغار(يقصد غار جبل ثور)، وكان يخرج إليه بهذا القصد قبل ذلك، وخرج إليه في هذه المرة مع ثلاثة من أصحابه من الهنود" (الورتيلاني حسين، 1974: 428- 437).

كما اعتمد على كثير من المصادر الأخرى المكتوبة، والتي يذكر البعض منها في مقدمة مؤلفه حيث يقول: "وأن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله، ثمَّ عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدّرعي الجعفري، هذا وإنّي أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزّمان، وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرهما مما يناسب المحلّ"(الورتيلاني حسين، 1974: 36- 37).

أما المجموعة الأخرى من المصادر، والتي اعتمدها وهي الأخرى كثيرة ومتنوعة فقد استخرجناها من المتون، ونظرا للعدد الكبير، سأذكر المصادر التي اعتمدها الورتيلاني مراراً بالترتيب حسب الأولوية من حيث عدد المرات التي استخدمها، ومنها:

كتب الرحلات: ويأتي في مقدمتها

الرحلة العياشية (ماء الموائد) 1661- 1663م، لأبي العباس عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (ت1090هـ/1679م)، وتعرف بالرحلة الكبرى،

ولازالت مكتبة زاوية سيدي حمزة بالريش بالجنوب الشرقي المغربي تحتفظ بالنسخة الأصلية لهذه الرحلة"ماء الموائد" بخط الشيخ أبي سالم العياشي نفسه.(شوقي بنبين أحمد، 2005: 57)

تشكل هذه الرحلة موسوعة ثقافية، ودائرة معارف إسلامية، لأنها ديوان علم، شمل الرسائل والملّخصات والأسانيد، والطرق الصوفية، وعلوم المسالك والممالك، كما تعتبر مصدرا عن كل الجوانب التي تعرضت إلى الحياة الفكرية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، سواء في المغرب أو المشرق العربيين، ومصدر لكثير من النصوص الأدبية والشعرية وخاصة من الإخوانيات والمديح النبوي.

تعد هذه الرحلة من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشارا، لأنها أكثر مادة وتنوعا، فقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها، ومن بينهم حسين الورتيلاني الذي اعتمد عليه أكثر من خمسين مرة، فقد نقل عنه الأخبار التاريخية، والأوصاف الجغرافية، والظروف الأمنية لطرق ومسالك الحجاج خلال رحلاتهم.

الرحلة الناصرية1709 - 1710م، لأبي العباس أحمد بن محمد بن الحسين ابن الإمام الشهير أبي عبد الله محمد بن ناصر بن عمر الدرعي ثم الأغلاني(ت1129هـ/1717م)، والذي كان ظاهرة في زمانه، تمتاز رحلته بوفرة المعلومات المستمدة من المعاينة الشخصية والملاحظة المباشرة في قراءة الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زارها في طريقه من المغرب إلى المشرق. فضلا عن ملامح تفاعل الثقافتين المغربية والمشرقية، اعتمد الورتيلاني عليه في عشرين موضعا خاصة في وصف المناطق والأقاليم، وتحديد المدن والمسافات، ومنها ما يذكره عن مدن طرابلس الغرب(ليبيا) كمدينتي درنة وسرت والتي يمدح طبيعتها ويذم أهلها(الورتيلاني حسين، 1974: 413).

رحلة التيجاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني(ت717هـ/1317م)، تعتبر هذه الرحلة من غرر المصنفات التونسية، ومن أهم المصادر في وصف البلاد الإفريقية، والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثامن الهجري. ومن طرائف هذه الرحلة ما أودعه التجاني من وثائق تاريخية بنصها

الأصلي، ومن أهمها ذلك السجّل الصادر عن الحسن بن علي آخر الأمراء الصنهاجيين المعلن بانتصاره على جيش النورمانديين في وقعة الديماس بالساحل التونسي.(التجاني أحمد، 1981: من المقدمة).

ينقل الورتيلاني من هذه الرحلة في موضوع واحد فقط، وهو تحديد جغرافية المدائن والقرى بطرابلس الغرب خاصة عندما يربط الأحداث الواردة في رحلة الدرعي ويتممها برحلة التيجاني، قوله: " قال أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته ما نصه: أقول"تاجورة" بوزن "باكروة"، قال التيجاني: "وهي قرية عامرة، وبها قصر متّسعُ يجتمع على دور كثيرة، وفي وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء"(الورتيلاني حسين، 1974: 341).

الرحلة المغربية، لمحمد بن محمد بن علي أبو عبد الله العبدري الحيحي (ت700هـ/1300م) والمشهورة برحلة العبدري الغنية بالمشاهد الحية للطبيعة، وبأوصاف المدن والمعالم الأثرية، وبتصوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وبذكر أعلام وفقهاء عصره. ينقل عنه الورتيلاني في ثلاث مواضع ومنها حديثه عن أقسام أرض"برقة" التي يخالف فيها تقسيم العياشي الذي كان جاري عند أهل زمانه (الورتيلاني حسين، 2001: 441).

رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المغرب والمشرق، لأبي البقاء خالد بن عيسى بن أحمد البلوي القنتوري (ت780هـ/1379م)، تكتسي رحلة البلوي سمة"الفهرسة"، لأنها تشكل أحد أهم عناصر الثقافة العلمية ببلاد المغرب والأندلس بمساهمتها في التأريخ الفكري خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ينقل عنه الورتيلاني في ثلاث مناسبات متفرقة.

كما نقل من كتب لرحالة آخرين، ولكن نظرا لاعتماد الورتيلاني عليهم مرة واحدة فقط، نكتفي بذكرها وهي رحلة ابن بطوطة الطنجي ورحلة ابن رشيد السبتي.

الكتب التاريخية والجغرافية

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، لعبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضيري الأسيوطي، المشهور باسم جلال الدين السيوطي(ت911هـ/1505م)، مؤلف ضخم في مجلدين ضمنه تاريخ رجالات مصر

وأثارها، ثم تناول الفتح الإسلامي وما صاحبه من وقائع وأحداث في المجلد الأول، بينما أورد في المجلد الثاني سلاسل مفصلة لولاتها، وقضاتها، ووزرائها، وخططها، ومدارسها وجوامعها، ونيلها وبساتينها، وعادات أهلها، وما اشتهر من الحوادث الغريبة والأوبئة في تاريخها، وختم بمختارات من الشعر حول أزهار وفواكه مصر.(السيوطي جلال الدين، 1998: 6- 9).

نقل عنه الورتيلاني مرارا وأشاد بالكتاب كثيرا، ومنها قوله: " وأحسن كتاب جامع في أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطي، فإنه مفيد جداً، ومن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة، أو أشياء قليلة من العوارض المشخّصات"(الورتيلاني حسين، 2001: 28- 29).

المسالك والممالك، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري الأندلسي(ت487هـ/1094م)، هو كتاب جامع بين التاريخ والجغرافيا، يعد من أهم المصادر التاريخية لجنوب غرب أفريقيا وشمال غربها، حيث يقدم وصفا دقيقا لطرق التجارة في الصحراء الكبرى بإفريقيا، كما يصف فيه البكري جغرافية الأندلس وأوربا وأفريقيا الشمالية.

مع ملاحظة، أنه كلما نقل عنه في موضع معين إلا وأردف كلامه بأبيات شعرية، من ذلك ما يذكره وهو بصدد الحديث عن المراحل من منطقة "المويلح"إلى"الوجه" بوادي سلمى بطرابلس الغرب.(الورتيلاني حسين، 2001: 191).

كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر، لأبي إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحي بن علي المعروف بالوطواط (ت718هـ/1318م)، يعتبر إحدى موسوعات العلوم الطبيعية والجغرافية المكتوبة في العصر المملوكي، إلا أن الطابع الأدبي غالب عليه.اهتم بالأنساب والتواريخ والجغرافية، بما فيها من وصف الأقاليم وذكر مسالك البلدان. ينقل عنه الورتيلاني في وصفه لعجائب مباني مصر خاصة منارة الإسكندرية قوله: " ومن عجائب مباني أرض مصر منارة الإسكندرية ". (الورتيلاني حسين، 2001: 165- 166).

مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان(الجمان في أخبار الزمان)، لمحمد بن علي الحاج الشاطيبي الأندلسي(ت963هـ/1555م)، وهو من التواريخ العامة،

كما أن الشاطيبي ألف عشرات الكتب والرسائل في مختلف الموضوعات الفقهية والصوفية والتاريخية والفلكية والفلاحة. (حجي محمد ، 1995: 140).

نقل عنه الورتيلاني في ثلاث مواضع منها ما يذكره عن المجال التاريخي القصصي في فتح مصر. (الورتيلاني حسين، 2001: 185).

شرح الشقراطسية، لمحمد بن يحي بن علي بن عمر الشقراطيسي المعروف بابن الشباط التوزري(ت466هـ/1074م)، العالم الرياضي، والأديب المؤرخ، كان فذا في زمانه، آية بين أقرانه، وُليَ قضاء توزر فحُمِدت سيرته وشُكِرت طريقته، ترجم لنفسه في شرحه لقصيدة الشقراطيسي المسمى"حلة السمط"، اقتبس عنه في أربعة مواضع منها وصف مدينة برقة وفتحها في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (الورتيلاني حسين، 2001: 420).

العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي(ت808ه/1406م). ينقل عنه فيما يخص تاريخ مصر فيُصدِقه ويُثبتُ كلامه بالدليل التاريخي، وعن ذلك يقول: "وقد ذكر ابن خلدون: إنّ مصر لا بد أن تشتمل على طائفتين، إحداهما في غاية العُتُوِّ والاستكبار، والأخرى في غاية الذّل والاستحقار، وقد صَدَق". (الورتيلاني حسين، 2001: 23- 26).

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بـ"الخطط"، لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي المقريزي (ت845هـ/1442م) يدخل موضوع هذا الكتاب في مجال فن كتابة الخطط الطبوغرافيا، وهو فرع من الجغرافيا التاريخية الإقليمية، تناول فيه مؤلفه الظواهر التاريخية والعمرانية والطبوغرافية لمدينة القاهرة في العصر الإسلامي، كما يقدم عرضا شاملا لتاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي حتى القرن السابع الهجري/ الخامس عشر الميلادي(عبد الوهاب حسن، 1971: 49).

نقل عنه الورتيلاني وهو يحاول اقتفاء أثر قرية أيلة القديمة التي اختلف المفسرون في تحديد موقعها بمصر وفي اسمها."(الورتيلاني حسين، 2001: 177).

أهمية الرحلة وقيمتها العلمية:

إن كتاب"نزهة الأنظار" هو في الحقيقة كتاب في التاريخ، حيث يعد من بين أكبر الأعمال التي أنجزها الورتيلاني في عصره على خلاف معاصريه من الرحالة، وهو يستوعب أحداث وأخبار لثلاث حجات قام بها المؤلف خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، كان يدّون ويسجّل كل ملاحظاته مما شاهده أو سمعه في أوراق وكتيبات، وبعد عودته إلى الجزائر، شرع في ترتيبها وتنظيمها وكتابتها، فتحولت رحلته الحجازية العلمية إن صح التعبير إلى أدب مكتوب على شكل مذكرات يومية، تناول فيها المؤلف بالوصف والتقرير انطباعاته ومشاهداته خلال مشوار الرحلة، سائراً على نهج ابن جبير الذي أصّل لهذا اللون من الأدب. (كراتشوفسكي يوليانوس، 1987: 293).

يكتسي كتاب "الرحلة الورتيلانية" أهمية كبيرة نظرا لقيمة المعلومات التي احتواها، فهو يقدم صورة شبه مكتملة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي ميزت عصره، فضلا عن أخبار تعلقت بتاريخ المغرب العربي عامة، وبعض بلدان المشرق العربي التي زارها كمصر والحجاز خاصة. فالرحلة زاخرة بالكثير من المعلومات التي تهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع. ولا شك أن المتمعن في محتويات الرحلة يجد بعض الاختلافات بينها وبين الرحلات المغاربية الأخرى، وذلك راجع لتفاوت درجة الملاحظة والاهتمام ببعض النواحي دون الأخرى، ومن هنا تظهر لنا أهميتها في النواحي التالية:

القيمة العلمية للرحلة الورتيلانية:

يعد مؤلف الرحلة مصدرا أساسيا لدراسة البلدان الواقعة في طريق ركب الحجيج (تونس، ليبيا، مصر، والحجاز، بما فيها المدن الجزائرية) التي مر بها خلال رحلته، كما يفيد كثيرا في دراسة المغرب العربي خاصة في العصرين الوسيط والحديث، نظرا لاعتماده أولا على الأخذ والعطاء بمجالسة كبار العلماء، والرواية عنهم، والحصول على إجازتهم العلمية في المراكز التي وصل إليها، وثانيا على مصادر تعود لتلك الفترة، ومنها كتاب"النبذ المحتاجة في ملوك صنهاجة" لابن حمادو الصنهاجي، وكتاب" عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان" للشاطبي، وكتاب" شرح الشقراطسية" لابن الشباط التوزري، وكتاب"الأدلة

السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية"، وبهذا أصبح الورتيلاني رسول علم ومعرفة، وحلقة اتصال، وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب الأوسط. فمن هذه الناحية، تعد الرحلة الورتيلانية من أهم الكتب التي تكشف عن الأصول والمنابع التي استقى منها الورتيلاني علومه، كما تعد من أهم المصادر عن الحركة العلمية في الحجاز ومصر.

إذا اعتبرنا أن الرحلات الحجازية ظاهرة تاريخية واضحة وجلية، فإنها أيضا ظاهرة أدبية وفن قائم بذاته على حد تعبير صاحب كتاب"أدب الرحلة عند العرب"، وهذا ما ترصده لنا الرحلة الورتيلانية التي تمثل لوحات فنية، ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكاراتي، وجمل في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش، مرايا تتعاكس، أماكن جديدة تستكشف يرتادها الحجاج المغامرين العاشقين للطبيعة، وكأنهم يتأملون أنفسهم في مرايا...تلك هي رحلة الورتيلاني، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان الذات واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان، فالرحلة سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود. (حسني محمود حسين، 1983: 8).

القيمة الاجتماعية للرحلة الورتيلانية:

شكلت الناحية الاجتماعية جانبا لا يستهان به في كتب الرحالة المغاربة، لأنهم كانوا يختلطون بأفراد المجتمعات، ويجالسونهم، ويتحدثون إليهم، مما جعلهم على إطلاع واسع بأحوالهم وعاداتهم وأنماط سلوكهم. والرحلة الورتيلانية سجل حافل بأخبار الناس وعاداتهم وتقاليدهم، وعلى الأخص لأهل الحجاز، حيث انصب الورتيلاني على إظهار الجوانب الحسنة للمجتمع الحجازي وباركها، والجوانب السيئة وانتقدها، والمشهد الذي يذكره عن أتباع الشيخ العيدروسي رضي الله عنه السالكين طريقته، نموذجا فيقول: " يعملون هنالك سماعاً وقراءة وتلاوة، ويجتمع فيه خلق كثير، وقد فرش المشهد كلّه وما حوله، وأعدّت

للحاضرين أطعمة وأشربة، ويستكثرون هنالك من المصابيح، فهو من المشاهد المشهورة بمكة، والمزارات المعظّمة"، أما من بين المشاهد التي أنكرها، قوله: "ومن جملة خرافاتهم المتعلّقة بتلك اللّيلة في ذلك: أنهم يأخذون معهم نوى التمر، فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة، ويزعمون أن من دفن شيئا حصل له في تلك السّنة بعدده ريالا أو دنانير". (الورتيلاني حسين، 2001: 353- 354).

نستنتج، أن انتقاداته عنيفة نوعا ما كانتقادات العبدري تارة، ومؤيدة داعية بإصلاح الأحوال كدعوة ابن جبير تارة أخرى، ولكننا وفي كل الحالات نقف عند ما يذكره عن البقاع المقدسة(مكة المكرمة والمدينة المنورة) باعتبار أن رحلته حجازية عكست رؤاه، ورسّمت وجدانه، وعبّر عن ذلك، بقوله: "فدخلنا مكة فلم نغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق، غير أن سرورها بالوصول إليها خفّف بعض الألم، بل قد زال التعب والنصب، كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله تلك النعمة". (الورتيلاني حسين، 2001: 259).

بقي في الأخير، الإشارة إلى ملاحظة، وهي أن المنهج نفسه اتبعه الرحالة المغربي محمد الحضيكي السوسي (ت1189هـ/1775م)، بحيث أورد هو الآخر جملة من الأخبار في جوانب معرفية مختلفة، تاريخية وجغرافية، وقضايا فقهية، وبعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، والعادات والتقاليد التي لاحظها أثناء رحلاته، ومما أستوقفني مثلا، هو رصد كلا من محمد الحضيكي وحسين الورتيلاني لظاهرة خروج النساء بمنطقة عين ماضي بالأغواط في الجزائر إلى الأسواق للتجارة والاختلاط بالرجال، واستنكارهم لها، وهو الأمر الذي يدعونا إلى احتمال أن الرجلين التقيا في إحدى الرحلات، خاصة وأنهم عاشوا في نفس الفترة الزمنية. (الشاهدي الحسن، 1990: 540).

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره تتبين لنا أهمية الرحلات الحجازية في كتابة التاريخ الجزائري خلال القرن الثامن عشر الميلادي، والتي كانت أكثر وفرة نسبيا إذا ما قيست بالرحلات العلمية أو بالرحلات التجارية، وتتبين أهمية كتاب رحلة الورتيلاني أكثر، حيث أسهم بعمل كبير في التاريخ نظرا لقيمة المعلومات

الكثيرة والمتنوعة التي احتوتها، خاصة وان الورتيلاني كان له شعور قوي بالتاريخ خلافا لبعض علماء عصره، فكان هذا العمل الضخم الذي اعتمد فيه على عدد كبير من المصادر النادرة والمفقودة تارة، إضافة إلى مشاهداته ومعايناته الواقعية للأحداث التي عايشها خلال رحلاته.

فكتاب الرحلة الورتيلانية يعد مصدرا من المصادر الأساسية لدراسة فترة القرن الثامن عشر الميلادي ليس فقط بالنسبة لتاريخ الجزائر، وإنما للعديد من المناطق العربية التي كانت جغرافية الرحالة، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال، فقد وصف الأماكن بالتفصيل، وعادات وتقاليد الشعوب بالتدقيق، وذكر العلماء والفقهاء الذين لقيهم بالترتيب.

لقد بين الورتيلاني في مقدمة كتابه أنه كان ينوي كتابة رحلة تكون مفخرة له ولتاريخ بلاده، فكان عند كلمته، رغم كثرة الاستطراد والتكرار والأخطاء، وتداخل المناسبات والمعلومات. ورغم ذلك فهي جديرة بالدراسة والبحث والاهتمام بطريقة أكثر دقة وعمقا وشمولا مما درست به حتى الآن.

المصادر والمراجع:

1- الأدفوي كمال الدين، (1914). الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ترجمة: أمين عبد العزيز، ط1، القاهرة: مطبعة الجمالية.

2- بروفنسال ليفي، (1977). مؤرخو الشرفاء، تعريب: عبد القادر الخلاّدي، الرباط: مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر.

3- التجاني أحمد، (1981). رحلة التجاني، تقديم: حسن حسين عبد الوهاب، ليبيا: الدار العربية للكتاب.

4- التازي عبد الهادي، (2005). رحلة الرحلات- مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، ج1، مكة: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

5- حجي محمد، (1995). جولات تاريخية، ط1، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

6- حسني محمود حسين، (1983). أدب الرحلة عند العرب، ط2، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

7- الدليرو المهدي ومحمد بوخبزة، (1981). فهرس مخطوطات مكتبة تطوان، تطوان: مطابع الشويخ.

8- السباعي مصطفى، (1985). السيرة النبوية دروس وعبر، ط8، بيروت: منشورات المكتب الإسلامي.

9- السيوطي جلال الدين، (1998). حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ج1، القاهرة: دار الفكر العربي.

10- سعد الله أبو القاسم، (1981). تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

11- الشاهدي الحسن، (1990). أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، الرباط: منشورات عكاظ.

12- شوقي بنبين أحمد، (2005). " المؤسسات الثقافية في المغرب- "خزائن الكتب العلمية"، **مجلة التاريخ المغربي**، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، ع35، ص.ص: 35- 57.

13- عبد الوهاب حسن، (1971). دراسات عن المقريزي، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف والنشر.

14- القادري محمد وآخرون، (1985). فهرس المخطوطات العربية والأمازيغية، ج2، الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية.

15- الكتاني محمد، (2004). سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، ج1، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة.

16- كراتشوفسكي يوليانوس، (1987). تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

17- ابن ميمون محمد، (1972). التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط1، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

18- الورتيلاني حسين، (1974). نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي.